

حيرة الفكر في معنى الحياة

من المشاهد في الأزمنة الحديثة أنه كلما أبدت الحروب نواجزها ، واستعر أوارها ، جرت في أذيالها خراباً شاملاً ، ودماراً كاملاً ، وتغيرت الأوضاع وتبدلت الأفكار وتشتتت الأذهان ، وحارت الألباب ، ويئست النفوس من بلوغ السكينة والاستقرار ، وصاح ذوو العقول الراجحة صيحة هلع ووجل من تقدم الاختراعات العلمية ، تقدماً يشفقون من أن يودى بتراث المدنية التليد في عالم الفكر الرفيع والفن الجميل . ولا غرو أن الحروب الحديثة بلغت شأواً من الفتك والتدمير لم يكن ليدور بمخيلة الأوائل السالفين ، وأن ما يقاسيه البشر من ويلات القنابل الصاروخية والذرية أشد هولاً مما تصوره دانتى في جحيمه . من ثم نرى النفوس عقب كل حرب نائرة على الأوضاع التي سبقتها ، حائقة على القيم التي اعتنقتها ، مهياة لانتقال عام ، معدة لتقويض دعائم مقاييس وأوزان تخالها أفلست إفلاساً تاماً وقادتها إلى الهاوية والهلاك ، فينشط حينئذ الباحثون يقدهون زناد فكرهم عساهم يهتدون إلى إزالة الألقاض الدارسة وإقامة أسس جديدة تعين المرء على إدراك شئ مما أُغلق عليه فهمه من أسرار الكون الغامضة ، وألغاز الحياة المتناقضة . وثمة فئة من الفلاسفة والكتاب يلمسون عبث أى كفاح أو جهاد فيسلسون القياد لليأس والقنوط ويتذرعون بالأجل المحتوم لبيئنا أن الوجود ماله الفناء ، والانسان مصيره العفاء ، ولا يرون مسوغاً للعمل ، ولا يقفون على معنى للحياة ، فيؤثرون الخلاص من الواقع متى وجدوا للخلاص سبيلاً . ولعل خير وسيلة للخلاص أن يكبّوا على تأليف كتب أو نشر مقالات يصبون فيها جام غضبهم وحنقهم محاولين إقناع قرائهم بسخف الحياة وتجردها من أى معنى . وهم لا ينفكون ينفثون حسرتهم ويبشون لوعتهم ، كأن في إفراغها على القرطاس ما يهدى روعهم أو يخفف همهم ، حتى تلقى أفكارهم بعض الخطوة - أو تقع موقفاً حسناً لدى بعض النفوس ، فيرتاح بالهم وتطمئن سريرتهم .

ومن المشاهدات الغريبة تهاقت الجماهير في أوروبا بعد أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها على اعتناق مبادئ سلبية ادمية لا سبيل معها إلى مواصلة أسباب الحياة والاشادة بآراء بعض الكتاب الذين يتزعمون مدرسة التشاؤم ويؤلفون نوعاً من الأدب القاتم العنيف لا يدع للمرء بصيصاً من الأمل يستعين به على تحمل همومه وأرزائه . وكما زادت عوامل القلق والحزع والتذمر بين الشباب زاد إقبالهم على ذلك الأدب اليائس المضطرب، أدب العدم والفاء ، واضمحلت لديهم عوامل الجلد الذى يعين على البقاء . ولعل رواج ذلك الأدب القلبي يرجع إلى أنه يتقن تصوير الحيرة والحزع والضجر الذى يحس به الشباب إحساساً عميقاً ، أو لأنه يعنى فى تحليل الروح الثائرة النافرة التى لا تجد اللذة إلا فى الخوض فى أعماق نفسها وغوص الخنجر فى الجرح محاولة أن تكشف فى قاعها شيئاً من الجمال الذى حرمته فى الحياة الواقعة . وقد يما قال نيتشه :

« إن الامعان فى الأمل يصبح مصدرراً للذة » .

نعم ! لقد انقضى زمن نظرية « الفن للفن » وهى وليدة عصر الوفرة والبذخ والترف الذى ساد أوروبا خلال القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين ، وترك الكاتب أو الشاعر برجه العاجى ونزل إلى معترك الحياة اليومية يخوض غمارها ويدافع فيها عما يراه حقاً . ولذا رأينا فى العصر الحالى كثيرين من الكتاب النابيين والشعراء النابغين يتناولون فى الصحف والكتب والمجلات مسائل سياسية واجتماعية هيدلون فيها بآرائهم ويسوقون حججهم ، بل رأينا بعض الكتاب وقد أرادوا أن يؤلفوا بين الجهاد النظرى المثالى وبين الجهاد الفعلى الواقعى ، يطرحون جانباً راحتهم وطمأنيتهم ويقحمون أنفسهم فى حروب تضطرم نارها بعيداً عنهم ، دفاعاً عن فكرة أو مبدأ اجتماعى ، فيبدلون دماءهم ويحودون بأرواحهم على مذبح عقائدهم . وقد يما لقى الشاعر الانجليزى العظيم لورد بيرون حتفه حين تطوع فى حرب استقلال اليونان . وقريباً حمل الروائى الفرنسى مالرو السلاح واستل سيفه فى معركة نائية عنه إذ انخرط فى سلك الجيش الشيوعى إبان الحرب الأهلية فى الصين ، كما نزع أرنست همنجواى عن بلده الهادى فى أمريكا ، وحارب فى صفوف الجيش الجمهورى إبان الحرب الأهلية فى إسبانيا .

يبد أن اندماج الكاتب فى الحياة العادية ونزوحه عن برجه العاجى

لم يعودا على الانسانية في كثير من الأحيان بنفع كبير، بل ربما أصابها من جراء ذلك ضرر عظيم . فقد شغل بعض الكتاب أنفسهم بقليل أو كثير مما يشغل به عابدة الناس أنفسهم ، واضطربوا معهم فيما يضطربون فيه من جد أو هو ، فباء كثير منهم بالخيبة والحسرة ، وكأنهم بعد أن خبروا ما يدعى أعمالاً جليلة ، لسوا ما تحويه هذه الأعمال من فراغ ، ووقفوا على ما تخفيه من سخف أجوف وقالوا إن الانسان عدم ولا يمكنه أن يتمخض إلا عن العدم ، فهو فان وأعماله كلها متسمة بطابع الفناء .

وإني اليوم أرغب في عرض كتابين لكاتب فرنسي ممتاز تناول في جميع مؤلفاته ومسرحياته التي أنشأها فكرة واحدة سيطرت على ذهنه وحواسه سيطرة تامة ، ألا وهي فكرة العدم وسخف الحياة التي أشرت إليها في مقدمة هذا البحث . أما ذلك الكاتب فهو ألبير كامو *Albert Camus* وهو شاب نشأ وترعرع في شمال إفريقيا بدأ نجمه يتألق في سماء الأدب خلال عام ١٩٤٢ إذ نشر مقالات وبحثاً في عدة مجلات أدبية وصحف سياسية في مدينة الجزائر استرعت اهتمام الأدباء والجمهور على السواء . ثم رحل إلى فرنسا وقت تحريرها وساهم بقلمه في صحيفة يومية من كبريات صحف باريس هي جريدة « كومبا » : *Combat* (الكفاح) وأول ما استلقت الأنظار من كتبه الأدبية قصة سماها « الغريب » وبحث سماه « أسطورة سيزيف » وهما الكتابان اللذان نويت التحدث عنهما في هذا المقام . وعلاوة على ذلك ألف ألبير كامو مسرحيتين إحداهما تدعى « الالتباس » *Le malentendu* والأخرى « كاليجولا » ^(١) *Caligula* وقد مثلت كلتاهما على أهم مسارح باريس (الأخيرة على مسرح *Hébertot* منذ عامين) ونالتا نجاحاً باهراً رغم أنهما قصتان يدور فيهما الحوار حول مسائل فلسفية عويصة الفهم يتعذر على المتفرج العادي إدراكها ، إذ تمتثان إلى ذلك النوع من المسرحيات التحليلية التي يكون مدارها تفسير حالة نفسية أو تسويغ عمل يبدو عجيماً من الوجهة السيكلوجية وهو ما اصطلاح عليه الفرنسيون بلفظ *pièce à thèse* .

(١) وقد نقل هذه المسرحية إلى العربية الأستاذ رمسيس يونان (دار الكتاب العربي أبريل سنة ١٩٤٧) .

ويلاحظ أن كامو اختار قلب القصة أو المسرحية ليسوق إلى القارئ نظرياته الفلسفية ، وليبرهن على صدق آرائه وصحة أفكاره ، وهي لم تتغير سواء في القصة أو المسرحية ؛ فالفكرة الإنشائية واحدة والعامل النفسي واحد خلال مختلف مؤلفاته ، وحتى الألفاظ تكاد تكون واحدة في بعض المواقف التي يتناول سردها . لذا يشعر القارئ عند مطالعة أكثر من كتاب لهذا الكاتب أنه لا يسعه صد سحر حججه الدامغة الراسخة ومنطقه القوى العنيد ولا سيما أن أسلوبه تقي رقيق ينساب في عذوبة خلاصة لا تصنع فيه ولا تميمق . وأبدأ الآن بعرض قصته « الغريب » ثم أردفها ببحثه الفلسفي « أسطورة سيزيف » .

الغريب (N.R.F.) *L'étranger*

يروى لنا ألبير كامو قصة شاب فوجئ يوماً بنبا وفاة أمه ، فسافر متثاقلاً إلى البلد الذي كانت تقضى فيه آخر أيامها يس رهط من الشيوخ في ملجأ للعجزة ، ثم سار في موكب الجنازة متباطئاً منهوكاً كأن الأمر لا يعنيه في شيء ، وكان العربة التي كانت تتهادى أمامه في مشيتها ، لا تنقل رفات أمه إلى مشاها الأخير . وبعد أداء المراسم المهدودة عاد أدراجه تواء إلى مدينته حيث قابل صديقه ماري ورافقها إلى دار السينما لمشاهدة رواية مضحكة . وفي ذات يوم دعاه جاره ريموند إلى قضاء يوم على شاطئ البحر للتمتع بأشعة الشمس الدافئة وللسباحة في مياه البحر الصافية ، فلبى الدعوة ، واستصحب معه صديقه ماري . وبينما هو يسير مع رفيقه بمحاذاة الشاطئ إذ هجم بعض الأعراب على ريموند واعتدوا عليه ، وطعنوه بمدية فسالت منه دماء غزيرة ، وكان أحد هؤلاء الأعراب وهو أخ فتاة عربية اتخذها ريموند خليله له قد يئس النية على الانتقام لشرف أخته ، وقد أتاحت له يومئذ فرصة تنفيذ خطته الأثيمة . وبعد أن قام الراوي بتضميد جرح صديقه تركه في صحبة بعض الرفاق واستأنف السير وحده بغية الرياضة والتسلية ، إلى أن وصل إلى بقعة منعزلة حيث فوجئ برؤية الأعرابي الذي اعتدى على صديقه ، مستلقياً على الأرض ، وما إن لمح الأعرابي حتى وقف منتصباً ، ووضع يده في جيبه كأنه يتفقد شيئاً ، فوقف الراوي أمامه

دون حراك ، وأشعة الشمس المحرقة مسلطة على عينيه تكاد تبره بصره وتعميه وجبينه يتصبب عرقاً ، والعرق ينحدر رويداً رويداً إلى مآقيه حتى يلسع جفونه وناظريه ؛ فتقدم خطوة إلى الأمام كي يتقى الحر اللاذع ، فما كان من الأعرابي إلا أن أخرج من جيبه مديّة وفتحها ، فانعكست أشعة الشمس على الصلب فلمع السلاح لمعاناً ذهبياً حتى لقد خيل إلى المسكين في ذهوله أنه أصيب بطعنة في جبينه ، فبدت منه حركة عصبية آلية ، وأخرج مسدساً وأفرغ منه رصاصة أردت خصمه قتيلاً ثم طفق يطلق عليه أربع رصاصات أخرى وهو جثة هامدة غير واع ما فعل ولا مدرك ما أتى .

والجزء الثاني من هذه القصة خاص بمحاكمة القاتل . وأهم ما يلفت نظر القارئ من بدء القصة إلى نهايتها جمود شاذ وبرود عجيب يتملكان الراوي خلال كل حركاته وسكناته ، وكأنه شارد تائه غائب خالي الوجدان لا يعي شيئاً مما يحدث له ولا يعبأ بأى شئ يقع تحت بصره أو سمعه ، فكل شئ لديه سواء . أما موقفه أثناء محاكمته فلا يختلف في كثير أو قليل عن مواقفه السلبية السابقة إزاء كل ما يضطرب حوله من أحداث أو أفعال ، فلا يعدو موقفه وهو في قفص الاتهام موقف المتفرج إلى مسرحية لا تعنيه من قريب أو بعيد كأنه غريب هائم وطئت قدماه أرضاً لا يفقه لغة أهلها أو تقاليدهم . وهو رغم جموده الصادق مالك وعيه ، حاد البصيرة ، نافذ النظرات ، لا تفوته شاردة أو واردة من تفاصيل الاجراءات القضائية المعقدة التي يلهو بها قوم يبدون له كمثليين يقومون بأدوارهم فيحكمون أداءها . وهو لم يذرف دسعة واحدة كما لم تجد عيناه بعبرة واحدة خلال تشييعه أمه إلى اللحد ، لا يشعر بأى ندم على إثمه الشنيع ولا يؤنبه ضميره ولا يحس بضعف أو خور أو يأس رغم طول إقامته في السجن ، وإنما قضى عليه أن يستمع إلى مرافعات النيابة العامة والدفاع ولا يرى سبيلاً للخلاص من المهزلة التي تحاك حوله إلا عند إسدال الستار والنطق بالحكم . وأخيراً يصدر الحكم بادانته وإعدامه بقطع رأسه على المقصلة . وحينئذ يبدأ المسكين يتمسك بأهداب أمل واه ضعيف وهو قبول الطعن المقدم منه لتخفيف العقاب . ومافتئت خواطر متناقضة ونوازع متشعبة تختلج قلبه وتجوب مشاعره وهو قابع في جحر سجنه يحاول إقناع نفسه بتفاهة الحياة الدنيا وسخفها مردداً ان الحياة أمر غير مستساغ وأن الموت أت لا ريب فيه ؛ فليس ثمة فرق بين

أن يموت الانسان في الثلاثين أو السبعين من عمره ، وهو في آن واحد يشرد ذهنه إلى احتمال العفو عنه فيشعر في سويداء نفسه بفرح عميق يسعى إليه سعياً حتى يغمره فلا يألوجهداً في كبت هذا الاحساس المتدفق وكتبه حتى لا تصرعه خيبة الأمل .

وأخيراً علم المسكين أن قد تم قضاء لاراد له ، ودخل عليه في غياهب سجنه قس يزجى إليه النصح والارشاد ويهيب زوجه لمقابلة بارئها ، فاستشاط غضباً وثار كالبركان وأمسك بتلابيب رجل الدين وطفق يهزأ بنصحه ويسخر من عقيدته الراسخة وإيمانه الوطيد .

وفي الحوار الختامي بين السجين ورجل الدين زبدة فلسفة البير كامو . لذا لايسعنى إلا أن أنقل بعض هذا الحوار لدلالته الواضحة على أفكار المؤلف :

سأل القس : « أبلغ تعلقك بالحياة هذا الحد ؟ ألم يجبل بخاطرك مرة أن تصبو إلى حياة أخرى ؟ » فأجابه السجين : « أنه يتمنى حياة أخرى ولكن مناه لن تعدو التمتي ، كما يتمنى الانسان أن يكون ذا جاه أو ذا فم جميل أو بارعاً في السباحة » . فأردف القس : « وكيف تتخيل الحياة الأخرى ؟ » فأجابه فوراً : « حياة أكون فيها قادراً على ذكر هذه الحياة » . فربت القس على كتفه وقال : « إني معك يا بنى وسوف أصلى من أجلك » . وهنا ثارت ثائرة المحكوم عليه وسب رجل الدين وهزه وشرع يحدث نفسه في حدة وحنق : « إن هذا القس يبدو واثقاً بما يزعم رغم أنى غير واثق أنه حتى إذ هو يعيش كالأموات ، أما أنا فيبدو أن يديّ فارغتان وليكني واثق بنفسى ، واثق بكل شئ ، متأكد من حياتي ومن موتي الداني القريب . إن هذه الثقة تملكني كما أملكها . إني أملك على الأقل حقيقة واقعة وهي موتى . إني قضيت حياتي على نمط معين وقد كان في إمكاني أن أحيها على نمط آخر . قد صنعت هذا ولم أصنع ذلك ، وماذا بعد ؟ النهاية واحدة ، لا شئ ، ليس لأى شئ أهمية ، لقد بات يهمس في أذنى خلال كل حياتي السخيفة وسواس يسوى في نظرى بين كل شئ . وما شأنى بوفاة الآخرين ! إني لا أبالي بحب أمم أو بحياة أخرى ، لا أبالي بمآلات أختار بينها ما دام أن مالا واحداً سوف يختارنى أنا كما يختار معى الملايين من الناس . » وظل المسكين يسترسل في تلك الصيحات التي كانت قدوى بين

ضلوعه إلى أن خمدت ثورته . وعندما أيقن أن نفسه تخلت عن الأمل وأن الأمل تلاشى أمامه ، رنا بنظره إلى أديم السماء الصافي تتالق فيه النجوم والرموز وشعر أن الطبيعة تشاطره ركوده وأنها ترد صدى جموده ، وحينئذ ذاق طعم السعادة وعرف أن السعادة لم تزايله بعد .

تعرض علينا هذه القصة وضعاً غريباً يلائم تمام الملاءمة أوضاع المذهب الوجودى existentialisme الذى يتزعمه فى العصر الحاضر الفيلسوف الفرنسى الشهير جان بول سارتر . أبان لنا كامو كيف أن السخف L'absurde قد يكون مائلا فى عمل واحد ، فيسيطر هذا العمل المفرد على مصير حياة بأسرها ويحيدها عن مجراها ؛ إذ أن قتل الأعرابي على يد بطل القصة وهو الراوى أتى نتيجة حتمية لسلسلة من المصادفات . وينسجم هذا الرأى مع قول سارتر فى قصته المسرحية *Huis-Clos* أن الانسان يحمل طوال حياته وزر عمل واحد ، وأنه يحمل مدى العمر وطأة عمل مفرد أناه ، ولا يحكم على الإنسان إلا عمله ولو كان عملا واحداً منعزلا ؛ إذ العمل يُعرّف الإنسان ، والانسان إنما هو عمله -

ويمتاز بطل قصة كامو بجموده وفتوره إزاء كل شئ ، فسيان لديه أن يقدم على الزواج وأن يحجم عنه ، أن يدان وألا يدان ، أن يشتغل فى باريس وأن يشتغل فى الجزائر ؛ فهو يشعر أنه غريب عن المجتمع وتقاليده ، بعيد عن دعائمه وعاداته ، لادخل له بسننه وقواعده ، ويرى الحياة سخيفة لامعنى لها ، لا تنطبق على شئ ولا تنسجم مع شئ . يدرك أن العيش عبث والاسترسال فيه لهو وعبث ؛ وأن الانسان يتخبط فى دياجير حالكه لا سبيل معها إلى الخلاص كما يتخبط هباءً رأس السجين على جدران سجنه الشائخة . ولن يفوتنى أن ألمع إلى الشبه العظيم بين قصة كامو « الغريب » وقصة كفكا « المحاكمة » *Le Procès* إذ تكاد وقائع القصتين تكون مماثلة ؛ فقد لحظ كفكا سخف الحياة وعبثها كما لمسها كامو ، وإنما وجد كفكا منفذاً للنجاة فى الايمان بحياة أبدية ، ولو أنه إيمان غامض حائر ، كما سبقه إلى الاعتصام بالخلود الفيلسوف كيركيجارد على حين طرح كامو جانباً هذه الفكرة ووجد العزاء فى حل آخر أسوقه الآن عند ولوج كتابه الثانى .

أسطورة سيزيف (N.R.F.) *Le mythe de Sisyphe*

يأتى الانسان كل يوم بأعمال معينة في مواقيت محددة ، فهو يستيقظ من نومه في الصباح ثم يختلف إلى مكتبه أو مصنعه أو حقله ، ثم يتناول طعام الغداء ثم يعود إلى عمله أو ينصرف إلى ملهى ، ثم يوب إلى بيته فيتناول طعام العشاء ، ثم يأوى إلى مضجعه حتى يأخذ الكرى بمعاقد أجدانه ، وهكذا دواليك طوال أيام الأسبوع وطوال الشهور وطوال السنين . ويظل يستمرس في حياة على هذه الوتيرة حتى تلوح الحياة في نظره مجرد عادة يستمر في اتباعها دون وعى إلى أن يقف الموت رجاها . ولكن قد يحدث للانسان ولو مرة أن ينهض وسط هذا الدوران الصاخب والاضطراب الدائب ليسأل نفسه لاهثاً متعباً : « لم هذا وما الفائدة من الحياة وما معناها ؟ » فيحس بحيرة شديدة تذهله وخور فجأى يقعه . وفي هذه اللحظة يفيق من سباته وينعم النظر في حياته ويحص عواملها ويفحص الدوافع التي تحفزه إلى تجرع الغصص في سبيل المحافظة على وجود وإطالة أيام لا يلحظ فارقاً بين أمسها وغدها ، فيبين له سخف الحياة وعيها الهازل ، ويطغى عليه جزع وحنق ، ويدعن للسأم والقلق . وهو لا يشهد إذ يجيل الطرف حوله إلا أجلا محتوماً ومصيراً معلوماً لا راد له ولا منفذ منه ، يرى الناس أجمعين يموتون كما تموت السائمة الحقيرة ، يرى كل المخلوقات تتلاشى وتختفى في قاع هوة حالكة سحيقة ، يرى كل شئ يستعث الخطى مهرولاً نحو الزوال والعناء ، وحينئذ يحس بمرارة ويأس يجزان في نفسه ويشعر بلهب نار متقدة تنلظى في أعماق قلبه ، فينقم ويتبرم ويحتد ويسائل حائراً تأمها شارداً « لماذا ؟ » تلك هى الحال التي يسميها ألبير كامو « الوعى بالعبث » *La conscience de l'absurde* وهى مرحلة تلازمها حال أخرى هى الهياج الداخلى ؛ إذ أن الشعور بالسخف ينطوى حتماً على الثورة عليه .

وثمة نتيجة هامة يرتبها كامو على هذا الشعور بالعبث ، وهى « الاقدام على الانتحار » . فاذا ما اقتنع الانسان بسخف الحياة وجب عليه أن يساير المنطق حتى النهاية ، فيؤثر الفناء العاجل على حياة تجردت في رأيه من أى معنى وخلت من أية حقيقة ، تأمرت على أن تطوِّح به بعد فترة إن طويلة وإن وجيزة

حيرة الفكر في معنى الحياة

إلى فناء أكيد لا مفر منه . ولما كان الموت الحقيقة الوحيدة التي يلمسها الانسان فلماذا لا يريح نفسه من عناء وشقاء لا طائل تحتما ويحصل على الخلاص في الفناء ؟

وقديماً ألقى هملت هذا السؤال عينه في كلمته المأثورة « البقاء أو الفناء . . .
To be, or not to be? وهذه الصرخة تتردد في حنات كل إنسان أدرك أنه لن يبلغ نفسه أبداً ، وأنه عاجز عن فهم الحياة وكنها .
هناك رد واحد على هذا السؤال ، كما أن هناك دافعاً واحداً يحفز الانسان على احتمال المشقات وتجشم الصعاب ، وهو الأمل أى الأيمان بحياة أخرى سمرمية تبدأ عندما تنفض النفس عنها غبار الحياة الأولى الوقتية ، وتبدو للمرء كأنها تكملة أزلية للحياة الأرضية . ولكن كامو لا يؤمن أو هو لا يكتفى باجابة يجهل دعائها ولا يستطيع التحقق منها فيتشكك فيها ولا يقبلها دليلاً ينهض على إثبات عكس ما يزعم بل إنه يصر على أن تلك الاجابة هروب من السؤال ؛ إذ السؤال حسب وضعه هو الآتى : هل يستطيع الانسان مواصلة السير في حياة مجردة من احتمال استئنافها ، وهل له أن يعيش بلا أمل ودون وجاء ؟ . . .

هناك نتيجة ثانية رتبها كامو على الشعور بالعبث وهى بلوغ « الحرية » .
وليس يقصد بالحرية معناها الدارج المؤلف ، وإنما يرمى بهذا اللفظ إلى فكرة أخرى أبينها بإيجاز في الشرح الآتى :

كلما وضع الانسان نصب عينيه هدفاً يبلغه أو صالة ينشدها أوغل في السعى إلى تحقيقها وألقى للحياة معنى ، ولكن ثمة من يختلج في نفسه إحساس عميق بعبث السعى وعدم جدواه ، وتسابق كل شئ نحو العدم والفناء . يقول كامو إن شعور الانسان بعدسه يجره ويفك أغلاله ، حتى إذا ما أتى بعمل في حياته العادية لم يعره بالاً ولم يعبأ به لعلمه بمصيره المحتوم ، وحينئذ تجنح نفسه إلى الفكك من كل قيد شاعرة أنها جرة طليقة لا تأبه بظاهر أى شئ ولا تكلف بحطام أى شئ . فاذا ما انطلقت النفس على هذا المنوال أحست بخلو وقضاء وبلغت حالا من الحرية تؤهلها لتذوق راحة تعمها وتغمرها . وقد كشف لنا الروائى الروسى الشهير دستوفيسكى النقاب عن نفسية أحد أبطال قصته *Les possédés* يدعى كيريلوف قاده تفكيره ومنطقه بعد أن عجز عن

إدراك اسمي الخلود إلى بلوغ هذه الحرية التي يحدثنا عنها كامو . يقول كيريالوف في أحد مواقفه : « إذا ما استبعدتُ الله من ضميري أصبحتُ إلهاً ، وقد بحثت خلال ثلاث سنوات عن خواص تألّهي فألفيتها الاستقلال » . وهو يعني بصيرورته إلهاً أنه حرطيق على الأرض غير مسخر لخدمة خالق سرمدى ، كما أن الفيلسوف نيتشه وصل في تفكيره إلى هذا القول بعينه إذ ذكر أنه مادام الانسان يعترف بوجود الله نسب إليه سبحانه وتعالى كل شيء وأقر بعجزه عن مقاومة مشيئته على حين أنه إذا أنكر وجود الله تأله الانسان واعتقد أن كل شيء يدين بالخضوع له وحده . وقد أسلفنا القول عرضاً أن الفيلسوف الدانمركي كيركجارد Kierkegaard أدى به تحليله وتمحيصه إلى الوقوف أيضاً على عبث الحياة وزيفها ، لكنه رغم ذلك لم يغرق في لجة اليأس ، وإنما طفا ونجا من الشعور بالعدم لاعتصامه بليمان راسخ ثابت لا يتزعزع في حين غاص آخرون مثل نيتشه ودستوفيسكي وكامو وسارتر في دياجير الشك المدممة .

وأخيراً استنبط كامو من إدراك الانسان سخف الحياة نتيجة ثالثة ضرورية يتمخض عنها منطقته كما ينبعث الدخان من النار وهي « الجموح » La passion ونفسيرها أن الانسان لا يملك من الحياة إلا ما مُنحه على الأرض ، فخليق به إذاً أن يعتمد إلى التمتع بما تُترك له منها إلى أقصى حدود التمتع ، وجدير به أن يحاول التملص من حدودها الضيقة وآفاقها القصيرة ، فيسعى إلى تنويع حياته ويركن إلى تجديد عيشه . وبما أنه لا قبل له بمد حياته عن طريق الطول إذ هو لا يسيطر على عمره فعليه أن يملأها من ناحية العمق . وضرب مثلاً على ذلك دون جوان العاشق المعروف وبطل القصص الأسبانية القديمة ، وقد اشتهر بعدد لا يحصى من المغامرات النسوية . وكان دون جوان يجدد نفسه مع كل امرأة تقع فريسة في حبال غرامه ، ويدأب على الجري وراء المغامرات دون أن يعتريه ملل أو كلل ، ويكن لكل امرأة جديدة حياً جامعاً وعاطفة صادقة ، لا ينال من جموحه وصدقه تكرار حوادثه الغرامية . كما يضرب مثل الممثل المسرحي إذ يعيش كل ليلة متدثراً شخصية تختلف عن شخصية الدور الذي لعبه في أسسه ، فتتراكم عليه هذه الشخصيات المتعددة المتنوعة المتنافرة وتطغى عليه حتى تصطبغ بها سلبقته وتتلون بها طبيعته ولا سيما أن الممثل إذا أجاد تمثيل دوره تقمص شخصية البطل المائل أمامه وانتحل صفاته وقلد

حركاته إلى أن يندمج فيه اندماج الماء بالراح . وكم من لاعب مسرحى يأتي دون وعى في حياته العادية بمحركات هاملت عندما يهيم بتناول الكأس . ولاغرو إن الطبيعة المصطنعة المتكفة تؤثر تأثيراً خفياً عظيماً في الطبيعة الأصلية . كذلك الفنان او الكاتب ، فانه يخلق لنفسه حياة جديدة كلما تفتق عن ذهنه أو خياله عمل فنى وكأنه مُبعث بقدر ما يُخلق .

وصفوة القول أن كامو يرى في الجموح وفي سعى الانسان لتجديد نفسه وإن أخفق السعى أحياناً احتجاجاً على مصيره المحدود وهياجاً على ألقه الضيق ومآله المحتوم ألا وهو الفناء والعفاء .

لأن وقد ظهرت فلسفة ألبير كامو جلية للعيان ، يحق لنا أن نسأله عن حظ الانسان على الأرض إذا ما وضع له عبث الحياة ولم يعتصم بجبل الايمان الصادق سيما بعد أن حرمه كامه فسحة الأمل الذى يحدو إلى الثابرة والجلد ولم يدع له سبيلاً للنجاة إلا الانتحار أى الفناء . من المشاهد أن من يعتمد إلى الانتحار ممن يوقن عن حس ووعى بسخف الحياة وعبث أهدافها نفر قليل جدا لا يؤبه بعددهم ، أفلا يوجد إذأً لدى الانسان المنطقى سبب آخر سوى غريزة البقاء يحفزه على مواصلة السير في دروب الحياة الشائكة الوعرة ؟ ألا يتخلل يأس الانسان من حظه بصيص من الأمل ؟ ألا تتسلل بارقة أمل خلال جحافل الظلام الدامس ؟ ألا يرتئى كامو سوى حلين : الانتحار أو الرضا بعيش فاتر جامد ممل ممض لا طعم له ولا لذة تجعله مائغاً ؟ يسوق لنا كامو في هذا المضمار قصة أسطورة يونانية قديمة خلعها عنواناً على بحثه يرى فيها الرد الشاقى .

زعم الاغريق في أساطيرهم الغابرة أن سيزيف Sisyphe ابن أيول Eole وملك كورنثيا كان رجلاً عاتياً جباراً قاسياً مولعاً بالسلب والنهب ، فغضبت لحاله الآلهة وحكمت عليه بعد مماته بغية التكفير عن أوزاره بأن يظل مدى الأبد في جهنم يدحرج صخرة ثقيلة حتى يشبثها فوق قمة جبل ، وكان سيزيف كلما بلغ بحمله ذروة الجبل الشاهق يرى الصخرة تهوى من عل وتثوى في الحضيض ، فيدلف وراءها إلى أسفل ويعيد الكرة حتى يصل بها إلى القمة من جديد فتسقط الصخرة مرة أخرى ، وهكذا دواليك لا يدرك غايته أبداً ، وهو رغم ذلك يعيد سيرته الأولى المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة دون

أن يعتريه وهن أو فتور . وقد رمت الآلهة بهذا العقاب الغريب إلى الامعان في تعذيبه وإيلامه ظنًا منها أن ليس ثمة جزاء أشد قسوة وردعًا من أداء عمل لا طائل تحته ولا جدوى منه ولا رجاء فيه . لذلك غدا سيزيف مضرب الأمثال عند ذكر عمل سخيف لا يشف إلا عن العتب . ومن أجل ذلك انتشل كامو شخصية سيزيف من جهنم الذي يهيم في لظاها وعرضه علينا حتى يكون ماثلاً أمامنا نتعزى بمصيره ونتجلد بصبره .

وقد تبادرت إلى كامو فكرة رائعة عند تحليله معنى هذه الأسطورة وعن له خاطر رائع إذ يقول إن ما يعنى ببحثه ويثير اهتمامه هو تلك الفترة التي تمر على سيزيف وهو عائد أدراجه من عل إلى أسفل ليحمل الصخرة مرة أخرى وهو عالم أنها مصدر شقائه وعذابه . خلال هذه الفترة يجد المسكين مجالاً للتنفس، ولإلغام النظر في حظه العاثر ، وخلالها يثوب إليه وعيه ويفيق من ذهوله . في هذه اللحظة بالذات عندما يغادر القمة ويهيم بالنزول يظهر لنا جلياً أن سيزيف قهر حظه وتغلب عليه وبات سيده وغداً أشد صلابة من جلمود صخره الذي يزرع تحت حمله كما ينوء المرء في الحياة تحت عبء عمل متكرر لا مناص منه ، يبدو سيزيف في هذه الآونة فاقد الأمل لا يستمسك بأهداب منى كاذبة ، وإنما يعلم علم اليقين أن جهده ضائع ، ويدرك تمام الإدراك أن ما يبذله ذاهب سدى ، ولكنه رغم ذلك لا يفتأ يعكف على أداء سخرته وهو يصارع حظه إلى أن يصرعه ، وهو يصرع حظه لأنه يحتقره ويزدرية . وإذا نحن أسلسنا القياد لكامو ساقنا في ركابه إلى أبعد من هذا الحد في عالم التصور والخيال ، فهو يردف زاعماً أن سيزيف قد ينتهي به الطواف إلى جنى لذة من شقائه وتحويل عصارة عرقه إلى شئ يشبه الهناء لشعوره أنه قابض على زمام حظه مسخر صخرته العاتية ملكاً له ومتاعاً .

ويختتم كامو كتابه قائلاً : « إن الكفاح لبلوغ الدرى يكفي في حد ذاته للمء قلب الانسان وإفعامه ، ومن ثم يكون حقيقاً بنا أن نتخيل سيزيف سعيداً » . هو يرمى بهذا إلى أن الكفاح في ذاته خير من النتيجة، والسعى نفسه أكرم وألد من الاكتفاء .

ويخيل إلى أن الكاتب أغفل أمراً هاماً أو على الأخرى شيد نظريته على افتراض لا يسيغه المنطق السليم ، إذ أنه جابهنا دون جدال أو نقاش

بفرض لم يكلف نفسه مؤونة تفسيره أو دعمه ؛ فهو يفاجئنا بقوله : إن سيزيف يثوب إليه وعيه في اللحظة التي ينأى فيها عن القمة ، وأنه يشرع في دحوجة صخرته من جديد وهو مدرك عبث عمله وسخف جهده . ويبدو لي أنه لو صح هذا القول خلال المائة مرة أو الألف مرة الأولى فهو لا يصح إلى النهاية ، وأن سيزيف وهو يدفع الصخرة المرة أثر المرة ولا يلمح أمامه إلا الحجر ، سوف يجمد حسه ويخبو وعيه وتتحجر نفسه فيصير آلة تأتي بحركات معينة في فترات متقطعة دون وعى أو حس . فاذا صح هذا الاعتراض انهار صرح منطوق كامو من أساسه

كما أن اكتفائه بلذة الكفاح في ذاته قول مشكوك فيه أيضاً إذ يفوق طاقة البشر . فاذا أيقن الانسان العادى أنه لن يبلغ هدفاً أو بعضاً من الأهداف التي يذوق الأمرين في سبيل بلوغها ، وإذا حرمناه أيضاً حافز الأمل ، ضاق درعا بالعمل ورغب عنه واستحوذ عليه اليأس والقنوط نعم ! يعلم الانسان أن كل شئ ماله العدم والفناء ، وأنه طيف عابر على وجه البسيطة ، ولكن ألا يحق له أن يذكر الحديث الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » . وما فائدة الحنق على سخف الحياة والتبرم بعثها ؟ وما الجدوى من الهياج على حقيقتها المريرة . وواقعها الأليم ؟ وأتى للعقل البشرى أن يلج أسرارها أو يحل ألغازها ؟ أليس الأفضل أن يكف الانسان عن سبر غور نفسه في كل لحظة ، وأن يحجم عن تحليل نوازعه ويقطع عن تمحيص خواطره وتشريح روحه ؟ ألا يعد الهرب من الواقع نصراً عليه في بعض الأحوال ؟ ولئن شق علينا فهم كنه الحياة ومعناها ألا يحق لنا أن نهزج إلى مثل عليا نسعى إلى إدراكها أو نلقى أنفسنا بين أحضان فن رفيع كالشعر أو الموسيقى أو التصوير عساه يسبح بنا في أعالي تنسينا الهموم والكروب ؟ أليس الأنفع أن نغض الطرف فلانبلبل عقولنا بصوغ سؤال عقيم يتكفل الموت وحده بالاجابة عنه ؟ أرى معنى الحياة مرتبطاً بمعنى الموت . فالموت إذ يطوى الحياة يكشف معناها ، ومن ظلماته ينبثق نور الحقيقة ، كما ينبثق من الليل البهيم الفجر المضيء المشرق .